الفصل الثاني
آثار العنوسة على أهل الفتاة

١ـ الانشغال الدائم بالعانس والتفكير فيها

٢ـ الاقتصار على الإقامة بالبلاد والحد من حرية التنقل

٣ـ حمل هم العانس والاهتمام بها إلى آخر لحظة من حياة وليها

الفصل الثاني

آثار العنوسة على أهل الفتاة

١ـ الانشغال الدائم بالعانس والتفكير فيها :

والد العانس دائم التفكير فيها والانشغال بها فتراه قد ظهرت عليه علامات الكبر ووخط رأسه الشيب قبل أوانه ليس بسبب هود وأخواتها ولكن بسبب سليمى وسلمى من بناته وبنات إخوانه وأخواته اللاتي أهرمنه وأمرضه وأسقمه التفكير فيهن فهن قد زوى عودهن وطال قعودهن ولا أمل لهن في خاطب فهذا واحد تقدم فرفضته ابنته الصغيرة بحجة أنه تجاوز أخواتها الأكبر منها ، وهذا خاطب آخر فرفضته بحجة أنه أقل منها تعليما ومنزلة فليس هو من رجالها. أو البنت الكبيرة فقد انزوت في غرفتها وأسود لونها وأبيض شعرها قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى مصورا حمل والد البنات لهمومهن:

إذا المرء شب له بنات عصبن برأسه عنتا وعارا[1]

وأنشد ابن الأعرابي لرجل عنده بنات حمل همهن منذ صغرهن فإذا زوجهن[2] بأزواج أغنياء احتقروهن وأهانوهن وشتموهن وضربوهن وإن زوجهن بأزواج فقراء لم يستطيعوا أن يقوموا بمستلزماتهن وتلبية طلباتهن، ولذا تمنى لهن الموت حتى يرتاح ويرتحن معه وذلك في ظنه فقال:

أحب بنيتي ووددت أني سترت بنيتي في قعر لحد
وما إن ذاك من بغض ولكن مخافة أن تذوق البؤس بعدى
فإن زوجتها رجلا فقيرا أراها عنده والهم عندي
وإن زوجتها رجلا غنيا فيلطم خدها ويسب جدي

---

[1] محاضرات الأدباء ج٢ص٣٢٥

[2] هذا عندما كان الزواج سهلا ميسورا

سألت الله يأخذهـا قريبـا وإن كانت أحب الناس عندي[١]

٢ـ الاقتصار على الإقامة بالبلاد والحد من حرية التنقل :

تختلف حركة الإنسان وتنقلاته بحسب أحواله فالأعزب أكثـر حركـة وتـنقلا وضربا في الأرض من المتزوج الذي له زوجته ولم يرزق بأولاد بعد كما أن المتزوج الذي ليس له ولد يكون أكثر حركة من الذي له أولاد فإذا جاءه الأولاد قلت حركته ، كمـا أن صاحب الأولاد يكون أكثر حركة من الذي له بنات فصاحب البنات غالبا يخلـد إلى الجلوس في بلده وملازمة بناته فيجبره بناته على تحديد الإقامة وعدم حرية التنقل فهو لا يذهب إلى أماكن بعيدة خوفا على بناته أن يمسهن سوء أو ينالهن مكـروه فهـو يخشـى عليهن من إلمام الجوع والعري بغيابه والغلظة والشدة من الذي يقوم بشأنهن في حالة عدم تواجده كما أنهن عرض يخشى عليه أن ينتهك وحرمات يهمه الحفاظ عليها ، قال حطان بن المعلى مصورا حبس بناته له وإنه لولاهن لكان كل يوم في بلد :

لولا بنيات كزغـب القطـا ينهضن من بعـض إلـى بعض
لكان لي مضطـرب واسـع في الأرض ذات الطول والعرض
إن هبت الريح على بعضهم لم تطعـم العين من الغمـض
وإنمـا أولادنـا بيننـا أكبادنـا تمشي علـى الأرض[٢]

فإذا زوج الإنسان بناته عادت له حريته من التنقل والتحرك كما يشاء، إمـا إذا كانت بناته صغارا أو كن كبارا ولم يتزوجن ولا إخوة كبار لهن فإنه يلازم بيته ومدينتـه ويقل خروجه. وإذا أمن الإنسان مكانا لبناته ووجد لهن حرزا منيعـا فإنـه لا يسـتطيع

---

[١] عيون الأخبار ج٣ص٩٣

[٢] بهجة المجالس القسم ١ص٧٦٧ـ٧٦٨

الجلوس بل سيسافر لتوفير لقمة العيش الكريم لهن ، وإن كان من غير وجود هؤلاء البنات لا يخشى الفقر وإنما صار يخشاه الآن لوجودهن ، قال إسحاق بن خلف البهراني:

لولا أميمة لم أجزع من العدم ... ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذو الرحم
أحاذر الفقر أن يلم بساحتها ... فيهتك الستر عن لحم على وضم
أخشى إضاعة عم أو جفاء أخ ... وكنت أحنو عليها من أذى الكلم
ما أنس لا أنس منها إذا تودعني ... والدمع يجري على الخدين ذا سجم
لا تبرحن فإن متنا فإن لنا ربا ... تكفل بالأرزاق والقسم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزال على الحرم[1]

٣ـ حمل هم العانس والاهتمام بها إلى آخر لحظة من حياة وليها :

يستعذب بعض الآباء الموت ويرحب به ويطيب به نفسا عندما يكون لا بنات له، ويهتم بالموت ويفرق منه ويخشاه عند وجود البنات، قال ابن الأعرابي: سمعت شيخا أعرابيا يقول: إني لأسر بالموت ولا دين ولا بنات.[2]

ويعتبر كثير من الناس أن تزويج البنات والانتهاء من همومهن من أكبر النجاح وأن وجودهن في البيت من غير زواج من أكبر المشغوليات وأنهن يأخذن حيزا كبيرا من تفكير آبائهن وأولياء أمورهن وأن الانتهاء منهن يجعل المرء يفكر في إنجازات أخرى، وقد ظن مشركو مكة أن تزويج النبي صلى الله عليه وسلم لبناته وانتهائه من همومهن والفراغ منهن تركه من غير شيء يشغل باله ففكر في شغل نفسه بادعاء النبوة فادعاها ولذلك

---

[1] عيون الأخبار ج٣ص٩٣ ، الحماسة لأبي تمام ج١ص١٠٧ ، محاضرات الأدباء ج١ص١٥٧

[2] البيان والتبيين ج٣ص٤٦١

أمروا أزواج بنات النبي صلى الله عليه وسلم بتطليقهن حتى ينشغل بهن وينسى دعوته ويتضح لنا هذا الأمر في هذه القصص:

ـ سألت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن يزوج بنتها زينب من ابن أختها أبي العاص بن الربيع وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين أمانة ومالا وتجارة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالفها وذلك قبل نزول الوحي عليه وكانت خديجة تعُدُّ أبا العاص بمنزلة ولدها فلما أكرم الله عز وجل نبيه بالنبوة قال أهل مكة : إنكم فرّغتم محمدا من همه فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن. فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت قال : لا والله لا أفارق صاحبتي وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثني عليه في صهره خيرا.[1]

ـ عند نزول قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[2] أمر أبو لهب ابنيه عتبة وعتيبة بطلاق رقية وأم كلثوم وقالا لهما: رأسي من رؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد . وقالت لهما أمهما حمالة الحطب: إن رقية وأم كلثوم صبتا فطلّقاهما فطلّقاهما قبل الدخول عليهما.[3]

---

[1] المعارف لابن قتيبة الدينوري ص١٤٢، البداية والنهاية لابن كثير مجلد٢ ج٣ص٣١٢ـ٣١٣

[2] سورة المسد آية ١ ـ ٥

[3] الإصابة لابن حجر ج٨ص٢٨٩ ترجمة رقم: ١٢٢٢٢

ـ زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنته رقية عتبة بن أبي لهب فأمره أبو لهب أن يطلقها وقالت له قريش: طلق بنت محمد ونحن ننكحك أي امرأة في قريش. قال: إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص فارقتها فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها وذلك قبل أن يدخل بها ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الأسد في بعض أسفاره.[1]

والبنت بصفة عامة يحمل أهلها همها منذ لحظة ولادتها وحتى وفاتها ، وبعضهم يستعجل وفاتها ليرتاح منها قال عقيل بن علفة في ابنته الجرباء:

إني وإن سيق إليّ المهر ألف وعبدان وذود عشر

أحب أصهاري إليّ القبر[2]

فيهتم الأهل بابنتهم وبإطعامها أحسن الطعام وإلباسها أفخر الألبسة وتربيتها وتعليمها ويحاولون جاهدين إرضاءها وتدليلها وفي رأي كثير من أرباب الأسر عدم جدوى تعليم البنت فوق المرحلة الثانوية مع فعلهم لذلك، والدافع لذلك هو الاستجابة لرغبة بناتهم وتلبية لطلبهن، ولو انتهت البنت من جامعتها وفكرت في الالتحاق بوظيفة تليق بالفتيات كالتعليم ونحوه من الوظائف فإنهم يسمحون لها بذلك ولا يأخذون من راتبها شيئا ولا ينتظرون منها شيئا بل يتمون لها ما نقص من مستلزماتها إن لم يكف راتبها ولم يف بأغراضها ، أما أخوها الذي معها في البيت والذي يمكن أن يكون أقل تعليما منها

---

[1] المعارف لابن قتيبة ص٢٠ وص ١٤٢، السيرة النبوية لابن هشام ج٢ص٣٠٧، أسد الغابة لابن الأثير ج٦ص١١٤ ترجمة رقم ٦٩٢١وكذلك ص٣٨٤ ترجمة رقم ٧٥٧٣. والإصابة لابن حجر ج٧ص٦٤٩ ترجمة رقم ١١١٨١

[2] بهجة المجالس القسم ١ص٧٦٦

وفي وظيفة أقل منها فإن أهله ينتظرون منه الكثير ويطالبونه بذلك ، يفعل أولياء أمور الفتيات كل هذه الأشياء نحوهن جبرا لخاطرهن وتطييبا لأنفسهن ولعلمهم أنهن إذا تزوجن وظفرن بزوج كفاهن أنفسهن فقد أتين بالمطلوب منهن وزيادة، كما أن أباها يهتم بها بعد زواجها توقعا لطلاقها من زوجها ورجوعها لبيته.

وقد جاء في الإحسان إلى البنت في مثل هذه الحالة أجر عظيم، فعن مُوسَى بْن عَلِيٍّ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ بَلَغَنِي عَنْ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِك يَقُولُ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ يَا سُرَاقَةُ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَعْظَمِ الصَّدَقَةِ أَوْ مِنْ أَعْظَمِ الصَّدَقَةِ قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ ابْنَتُكَ مَرْدُودَةٌ إِلَيْكَ [1] لَيْسَ لَهَا كَاسِبٌ غَيْرَكَ.[2]

ويمتد هذه الاهتمام بالفتاة طول حياة والدها وعند مرضه وشعوره باحتضاره ودنو أجله فإنه لا يخاف من الموت لأنه لا بد منه وإنما يخاف الموت لأنه يفرق بينه وبين بناته ويخشى عليهن الضيعة وجفاء أخ أو غلظة قريب ولعل الذي يخلفه عليهن يقسو عليهن أو يكون فظا غليظ القلب في معاملته لهن ، قال رجل من النساك لصاحب له وهو يجود بنفسه أما ذنوبي فإني أرجو لها المغفرة ولكني أخاف على بناتي الضيعة فقال له صاحبه: فالذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فأرجه لحفظ بناتك.[3]

---

[1] قال ابن الأثير : المَرْدودةُ: التي تُطَلّقُ وتُرَدُّ إلى بيت أبيها، وأراد: ألاَ أدُلّك على أفضل أهل الصدقة؟ فحذف المضاف.ومنه حديث الزبير في وصيّته بدَار وَقَفها وللمَرْدُودة من بَنَاته أن تَسْكُنها لأن المُطَلّقة لا مَسْكَن لها على زَوجها.[النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: {ردد}]

[2] سنن ابن ماجة، كتاب: الأدب، باب: بر الولد والإحسان إلى البنات، حديث رقم: ٣٦٥٧ / مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث سراقة بن مالك بن جعشم، حديث رقم: ١٦٩٢٥

[3] البيان والتبيين ج١ص١٢٠

ويوصي الأب عند وفاته أقرب أبنائه وألصقهم به بأخواته خيرا أن يهتم بهن ويراعيهن كما أوصى عبد الله بن حرام ابنه جابرا بأخواته بمراعاتهن والإحسان إليهن والحفاظ عليهن ، عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أَبِي مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا .[1]

وهذه الوصية أثرت على جابر رضي الله عنه وعلى اختياره لزوجه فاختار ثيبا بدلا من بكر لترعى أخواته وتقوم بمصالحهن كما مر بنا.[2]

أما الولد فلا يشكل هاجسا كبيرا لوالده في أي شيء كالبنت فانحراف البنت مثلا عار الأبد وعثرة لا تقال وفضيحة الدهر التي لا تغتفر وسوءة لا بعدها سوءة أما انحراف الولد فهو صبي والصبا والتصابي من شأن الصبيان كما أنه فحل وشأن الفحل الهجوم على الإناث وهذا شيء عادى وأمر طبيعي فعلى الإناث الابتعاد عن طريق الفحول وعلى أهل الإناث عدم التفريط فيهن وإلا تعرضت لها الفحول.[3]

يحمل كثير من الآباء هذه المفاهيم ويكون عند الواحد منهم أولاد وبنات فيطبق هذه المفاهيم على أولاده فيتسامح معهم ويطلق لهم الحبل على الغارب بل يعتذر لهم

---

[1] صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة، حديث رقم ١٢٦٤

[2] انظر ص من هذا الكتاب

[3] قال المعري:

واطلبْ لبنتِكَ زوجاً كي يراعيَها وَخَوِّفِ ابنكَ من نسلٍ وتزويجِ

وأحيانا يشجعهم على هذه الأمور وفي الشعر العامي السوداني امرأة لها ولد اسمه حسين يدرس في كتاب من كتاتيب القرآن وله لوح يكتب عليه آيات من القرآن ليحفظها ويمحوها ويكتب فيه غيرها ويحفظها، وكان الولد منهمكا في قراءة القرآن غير منشغل بعالم النساء، منصرفا عنهن فقالت له أمه:

يا حسين أنا أمك وأنت ماك ولدي ... بطنك كرشت[١] غي البنات ناسي[٢]

ودقنك حمست جلدك خرش ما في[٣] ... لا ك مضروب بالسيف نكمد في

متين يا حسين أشوف لوحك معلق[٤] ... لا حسين كتل[٥] لا حسين مفلّق[٦]

لا حسين ركب الفي الشاية علّق ... قاعد للزكاة ولفظ المحلق[٧]

---

[١] أي صارت بطنك كبيرة وصار لك كرش ضخمة من جراء قعودك للأكل وحفظ القرآن ولا تتحرك.

[٢] وتجيب هذه المرأة بأن ما حدث لحسين خلاف ما تحبه وترغب فيه ، فلحيته كثرت وبطنه صارت ضخمة ونسي هذا الحسين مغازلة البنات والانشغال بهن ، والتعرض لهن ، وانصرف لقراءة القرآن.

[٣] أي صار جلدك أملس كجلد الفتاة لا فيه جرح وخدش من ملاقاة الأعداء

[٤] تسأل هذه المرأة متعجبة ابنها حسينا متى ترى لوحه معلقا على المشجب في البيت، واللوح هو الذي يكتب به في المدارس القرآنية وهو مصنوع من خشب.

[٥] كتل: أي قتل في حرب بينه وبين أعداءه

[٦] وتتعجب أمه أيضا أن ابنها لم تسمع عنه أنه: قتل (كتل) في معركة من المعارك أو فلق رأسه أو جرح في جسمه.

[٧] انظر كتاب: الهمبته في السودان ، تأليف : شرف الدين الأمين عبد الله، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص ٦٩

يكون بعض الآباء كهذه الأم في التهاون بالأبناء الذكور وعدم مراقبتهم ولكنه يراقب حركات ابنته ويفرط في المراقبة والتدقيق وهذا أمر يحمد عليه ولكن ينبغي النظر للأمر من الجانبين، وتعظيم الانحراف من الاثنين.